﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع آيات الله للتّعريف بعظمته وقدرته 

لَمّا ذكرَ أنواعَ العذاب الذي وقعَ على قوم لوطٍ، وما تقدَّمه من ذكرِ ضيفِ إبراهيم، وقصَّة لوطٍ، أفادَ أنَّ الإخبارَ عن ما عمّا تقدَّم بأنواعِه هو آياتٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، وجاءت الجملة تذييلًا للقصَّة لما فيها منَ العبرة لعموم المخاطبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾: أصلُ (وسم): يَدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَم، ووَسَمتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرْتُ فيه بِسِمَةٍ[1]، والسّيما ياؤُها في الأَصل واوٌ، وهيَ العَلامَةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ[2]، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وسُمّيَ مَوسِمُ الحاجِّ موْسِمًا لأنَّهُ مَعْلَمٌ يَجتمِعُ إليه النّاسُ، والتَّوسُّم يقرب مِن الفَراسة، هو الَّذي سمّاهُ القوم: الزَّكانة، وقومٌ: الفِطنة، وقومٌ: الفراسة[3]، والـمُتَوَسِّمُ: الـمُتَحَلّي بِسِمَةِ الشُّيوُخ، وهو مَوْسومٌ بِالخَيْرِ والشَّرِّ[4]، والـمُتَوَسِّمونَ: أصحابُ التَّوَسُّم، وهو التَّأمُّلُ في السِّمَةِ، أي: العلامَةِ الدّالَّةِ على المَعْلَم، والـمُرادُ بـ ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ في الآية: الـمُتأمِّلون في الأسبابِ وعَواقبِها، أولئك هُمُ الـمُؤمِنونَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن تجرَّأ على السَّيئات، عوقب بأشنع العقوبات

إنَّ في قصَّةِ قومِ لوطٍ وما فعلَه اللّه ﷻ بهم منَ العذابِ، وبقاءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وسم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وسم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وسم).

آثارِ هَلاكِهم، لَعلاماتٍ للمُتفَرِّسينَ المتأمِّلينَ المتفَكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتَبِرونَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الجملة عن سابقتها:

آياتُ الله عظةٌ للنّاظرين، وعبرة للمعتبرين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، جاءت الآية على طريق الفصل، لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه بعدَ أنَّ قصّ الآياتِ كان كأنَّه قيلَ: هل في هذه الآياتِ العظيمة عظة للنّاظرين المعتبرين؟ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، أو لأنَّها جملةٌ تذييليَّةٌ لتأكيد مفهوم الكلام السابقِ، فإنَّ في ما حُكي من قصَّة ضيف إبراهيم، وقصَّة لوطٍ مع الملائكة، ونجاته وأهله إلّا امرأته منَ العذاب، وإهلاكِ قومِه المجرمين آياتٍ وعظاتٍ لكلِّ المتفرّسين النّاظرين في حقائق الآياتِ.

فائدة تتابع التّأكيدِ في نصّ الآية المفيد:

الاعتبار هو الغرضُ الأسمى من حكاية قصص السّابقين في القرآن

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، لَمّا كانت هذه الآياتُ لجميعِ المخاطبين منَ المتّعظين وغيرِهم، ولمّا لم يعتبر بها المكذّبون بعدَ مرورِهم بها ورؤيتِهم لها أقامَهم مقامَ غيرِ المتوسّمين المتّعظين، وقرَّر أنَّ الانتفاع منها يكون للمتوسّمين المعتبرين، ففي الآيةِ حثٌّ على الاعتبار بقصص الأقوام السابقين التي يخبر اللّٰه عنها، والغرضُ الأسمى من حكاية قصص الأقوام السابقين في القرآن هو الانتفاع منها والاعتبار بها، لتكونَ آياتٍ للمتوسّمين.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق المذكور:

تقديم عناصر الجملة وتأخيرها، من البيان الفصيح

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، قُدِّمَ المسندُ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المسند إليه للاهتمام والعناية به، ولا يفيد التّقديمُ هنا الاختصاص.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/543، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

براعة إدخال حرف الجرّ ﴿فِي﴾ على اسم الإشارة:

الاعتبار يكون بالنّظر إلى بواطنِ الأمور، وليس إلى ظواهرِها فحسب

أفاد حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيد الظّرفيَّة أنَّ المتوسّمين ينظرون في باطنِ الآياتِ؛ للإشعار بأنَّ الاعتبار بها ليس بالنّظر إلى ظواهرِها، فكأنَّ ما ذكر منَ الأخبار ظرفٌ قد جمعَ الآياتِ للمتوسّمين وأحاطَ بها، فلا يدركُها إلّا النّاظرون فيها.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد دون القريب:

رفعة شأنِ المعتبرين بآياتِ الله، لخشيتهم منه غالبًا

عُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد؛ للإشعار بأنَّ هذه الآيات لا يعتبر بها إلّا المتوسّمون؛ لبعدِ مكانتِها عنِ الاعتبار من جميعِ المخاطبين؛ ليفيد بُعدَ مكانةِ المتوسّمين في الآيات ورفعةَ شأنِهم.

نكتةُ جمعِ الآيات دون إفرادِها:

المتدبّرون يرون الآياتِ بحقائِقِها، لا بأشكالِها فقط

جمع الآيات للإشارة إلى كثرتِها وتنوّعها بما قصَّ اللّه من حديث ضيف إبراهيم ومجيئهم لوطًا وتعرُّضِ قومِه لهم طمعًا فيهم، وما كان من أمرهم آخِرًا من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين وقلب المدينة على مَنْ فيها، ففي كلِّ واحدةٍ منها آية، وفي جميعها آياتٌ لمن يتوسَّم ويعتبرُ[1]، وفيه إشعارٌ بأنَّ المتفرّسين يرون الآياتِ ويتأمّلونها بتفصيلاتِها وحقائِقِها لا بظواهرِها.

فائدة تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ في السّياق:

الحثُّ على الاعتبار بآياتِ الله الكثيرة، من مسالك الإيمان

أفاد تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، في سياق الامتنانِ تعظيمَ الآياتِ المذكورةِ وتفخيمَها، للحثِّ على الاعتبار بها والانتفاع من خبرِها.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾:

اختصاص المتوسّمين بالاعتبار، من سبل المبالغة في الادّكار

أفادت اللّام معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الآياتِ المذكورة مختصَّةٌ بالمتوسّمين لا تتجاوزهم إلى غيرِهم على سبيل المبالغة.

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/819.

فائدة (أل) في قوله ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

التّوسُّم في آيات الله، صفة مدحٍ وثناءٍ من الله

تفيد (أل) الاستغراق، بمعنى: إنَّ في ذكر ما تقدَّم منَ الأخبار آياتٍ لِجميع أفراد المتوسّمين، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي)، بمعنى: الذين يتوسّمون، لتعظيم شأنِ المتوسّمين ومدحِهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

في إهلاكِ العاصين، وإنجاء الصّالحين، تنبيهٌ لأمّة الإسلام في اللّاحقين

حقيقة المتوسِّم في اللغة: هو الّذي يعلمُ باطنَ الشّيءِ بسِمَةِ ظاهرِه[1]، فالمتوسّمون هم المتفرّسون بالنّظر المتثَبِّتون فيه حتى يعرفوا حقيقة الشّيءِ بسمتِه[2]، فعبَّرَ بالمتوسّمين؛ لأنَّهم الذين ينظرون في وسم المعنى فيستدلّون به على المعنى، فينظرون فيه نظر المتثبِّت، فلمّا أبقت معصية قوم لوطٍ منَ العذاب والإهلاك وسْمًا، كان مَن رأى الوسم استدلَّ به على معصيتِهم، واقتاده النَّظر إلى أن يسأل عن سببِ هلاكِهم ليتجنَّبَ المعاصي لئلّا ينزل به ما نزل بهم، فينزجر عن صنيعه ويتعظ به، لأنَّه يعلمُ أن الذي أهلك قومَ لوط قادرٌ على إهلاك الكفّار المكذّبين، ففي التّعبير بلفظ المتوسّمين تذكيرٌ بأنَّ في إهلاكِ الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين منهم إيقاظًا وانتباهًا ووعدًا ووعيدًا وتأديبًا لهذه الامَّةِ، والمعنى فاعتبروا بأحوالهم واجتنبوا أفعالهم، فهذه ديار الظالمين ومصارعهم[3].

بلاغةُ التَّعريضِ في لفظ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

من لم يتّعظ بالأمم السّابقة، فليس من أهل الاعتبار

في ذكر المتوسّمين تَعريضٌ بِالَّذينَ لَم تَرْدَعْهُمُ العِبَرُ بأنَّهُم دونَ مَرْتَبَةِ النَّظَرِ، ففي الكلام تَعريضٌ بِالمُشْرِكينَ وبكلٍّ مَن لم ينتفعْ من قصص الأقوام السابقين، الَّذينَ لَم يَتَّعِظوا بِأنْ يَحِلَّ بِهِم ما حَلَّ بِالأُمَمِ من قَبْلِهِمُ الّتي عَرَفوا أخْبارَها ورَأوا آثارَها، أي: إنَّهم ليسوا

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/55.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/639.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/456، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والبروسوي، روح البيان: 4/481.

من أهل النّظر والاعتبار، وإنَّهم إنّما ينظرون في ظواهر الأمور دونَ حقائِقِها وبواطنِها[1].

بلاغة التَّذييل في نهاية الآية الكريمة:

الجملة تفيد عمومَ المعنى، وكونها بمثابة المثل في حكايتها

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العمومِ بما تقدّم من تفخيم الآيات واقترانِ (أل) التي للاستغراق في المتوسمين، ومجيءِ الآية بطريق الفصل لتأكيدِ مفهومِ الكلامِ كانت الجملة تذييلًا للكلام[2] لتفيد معنى الحكم الكلّيِّ، فتخرج مخرجَ المثل في حكايتِه وفشوِّ استعمالِه واستقلالِه والاستدلالِ به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.